الفصل التاسع والعشرون

أفعل التفضيل

حقيقة أفعل التفضيل :

أشار إليها الزجاج في توجيه قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [1] فقال : " إن قال قائل : كيف يقال : (الجنة خير أم النار) وليس في النار خير ألبتة ؟ وإنما يقع التفضيل فيما دخل في صنف واحد ، فالجنة والنار قد دخلا في باب المنازل في صنف واحد ، فلذلك قيل : أذلك خير أم جنة الخلد ، كما قال عز وجل : ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [2] " [3] .

وقال في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [4] : " فيه غير قول ، فمنها أن الهاء تعود على الخلق ، والمعنى أن الإعادة والبعث أهون على الإنسان من إنشائه ؛ لأنه يقاسي في النشأة ما لا يقاسيه في الإعادة والبعث ، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل اللغة : إن معناه : وهو هين عليه ، أي كل ذلك هين عليه عز وجل ، وأن (أهون) ههنا ليس معناه أن الإعادة أهون عليه من الابتداء ؛ لأن الإعادة والابتداء كل ذلك سهل عليه ، قالوا : ومثل ذلك من الشعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول [5]

فمعنى (لأوجل) : لوجل ، وقالوا : الله أكبر ، أي : الله كبير ، وهذا غير منكر ، وأحسن من هذين أنه جل وعز خاطب العباد بما يعقلون فأعلمهم أنه يجب عندهم أن يكون البعث أسهل من الابتداء والإنشاء ، وجعله مثلا لهم فقال : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [6] ، أي قوله : (وهو أهون عليه) قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل " [7] .

---

(١) الفرقان /١٥ . (٢) الفرقان /٢٤ .
(٣) معانيه ٤/٦٠ . (٤) الروم /٢٧ .
(٥) البيت من الطويل ، وقائله معن بن أوس ، انظره في شرح الكافية للرضي ٣/٥٢٧ ، وخزانة الأدب ٦/٥٠٥ ، ومنهج السالك ٢/٢٦٨ .
(٦) الروم /٢٧ . (٧) معانيه ٤/١٨٣ ، ١٨٤ .

حكم المجرد من (أل) والإضافة :

في حديث الزجاج عن قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إشارة إلى حذف (من) الجارة للمفضول مع مجرورها للعلم بها ، وقد صرح بوقوع ذلك الحذف في توجيه قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [1] فقال : " معناه: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالذي هو الحق وأحسن فسيرا من مثلهم ، إلا أن (من) حذفت لأن في الكلام دليلا عليها ، لو قلت : رأيت زيدًا وعمرًا فكان عمرو أحسن وجها كان الكلام فيه دليل على أنك تريد : من زيد " [2].

ويذكر النحويون أن حذف (من) مع المفضول يكثر إذا كان أفعل التفضيل خبرا في الأصل أو الحال [3] .

حكم المقرون بـ(أل) :

أشار الزجاج في توجيه قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [4] إلى أن (أفعل) المجرد يلزم الإفراد والتذكير ، ولهذا منع ما رواه الأخفش : (وقولوا للناس حسنى) ، وعلل المنع بأن باب الأفعل والفعلى نحو الأحسن والحسنى والأفضل والفضلى لا يستعمل إلا بالألف واللام [5] ، وفي هذا التعليل إشارة إلى التلازم بين اقتران أفعل التفضيل بـ(أل) ومطابقته لموصوفه في الإفراد وغيره ، وفي والتذكير والتأنيث ، وهي مطابقة واجبة .

حكم المضاف :

قال الزجاج في توجيه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [6] : " معنى (أول كافر) : أول الكافرين ، قال بعض البصريين : في هذا قولين : قال الأخفش : معناه : أول من كفر به ، وقال البصريون أيضا : معناه : ولا تكونوا أول فريق كافر به ، أي بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وكلا القولين صواب .

وقال بعض النحويين : إن هذا إنما يجوز في فاعل ومفعول ، تقول : الجيش منهزم والجيش مهزوم ، ولا يجوز فيما ذكر : الجيش رجل والجيش فرس ، وهذا في فاعل ومفعول أبين ؛ لأنك إذا قلت : (الجيش منهزم) فقد علم أنك تريد هذا الجيش فنطقت

(١) الفرقان /٣٣ . (٢) معانيه ٦٧/٤ . (٣) انظر التصريح ١٠٢/٢ .
(٤) البقرة /٨٣ . (٥) معانيه ١٦٣/١ ، ١٦٤ . (٦) البقرة /٤١ .

في لفظه بفاعل ؛ لأن المعنى الذي وضع عليه الجيش معنى يدل على جمع ، فهو فاعل ومفعول يدل على ما يدل عليه الجيش ، وإذا قلت : الجيش رجل فإنما يكره من هذا أن يتوهم أنك تقلله ، فأما إذا عرف معناه فهو سائغ جيد ، تقول : جيشهم إنما هو فرس ورجل ، أي ليس بكثير الأتباع ، فيدل المعنى على أنك تريد : الجيش خيل ورجال ، وهذا في فاعل ومفعول أبين كما وصفنا .

وقد أشار الزجاج في بحثه لهذه الآية إلى ما قرره جمهور النحويين من أنه يلزم فيما أضيف إليه (أفعل) إذا كان نكرة أن يطابق الموصوف في الإفراد وغيره والتذكير وغيره ، والآية أفرد فيها المضاف إليه ، ومقتضى القاعدة أن يجمع ليطابق الواو في (ولا تكونوا) فكان حقه أن يقال : أول كافرين ، فكيف جاءت بالإفراد ؟ وقد أجاب الزجاج عن ذلك بقول الأخفش ، والقول الآخر ، وما نسبه إلى بعض النحويين ، وهو قول الفراء [1] .

(١) انظر معاني للفراء ٣٢/١ .

obeikandl.com